

إشكالية التقيد بالموضوعية في الدراسات العلمية الاجتماعية

د. عبد القادر نشادي

جامعة المدية

د. أحمد طيلب

جامعة خميس مليانة

د. حميدات ميسوم

جامعة الجلفة

الملخص :

تشكل الوقائع الاجتماعية وقائع ذاتية من حيث أن لها دلالات خاصة عند الفاعلين الاجتماعيين حسب ماكس فيبر، فالباحث الاجتماعي هو جزء لا يتجزأ من أي موضوع من مواضيع التي يتناولها في بحوثه العلمية، فهو أولا وقبل كل شيء عضو في جماعة له مواقفه وقيمه الخاصة وتوجهاته الأيديولوجية والسياسية التي هو مؤمن بها ومقتنع، إلا أنه يبقى الجدل قائما حول الصعوبات الكبيرة التي تعترض الباحث في الالتزام بالموضوعية في الدراسات الاجتماعية.

المقدمة:

تشكل الوقائع الاجتماعية وقائع ذاتية من حيث أن لها دلالات خاصة عند الفاعلين الاجتماعيين حسب ماكس فيبر، فالباحث الاجتماعي هو جزء لا يتجزأ من أي موضوع من مواضيع التي يتناولها في بحوثه العلمية، فهو أولا وقبل كل شيء عضو في جماعة له مواقفه وقيمه الخاصة وتوجهاته الأيديولوجية والسياسية التي هو مؤمن بها ومقتنع، ورغم استمرار الجدل حول الصعوبات الكبيرة التي تعترض الباحث في الالتزام بالموضوعية في مختلف الدراسات التي يقوم بها بشكل عام والدراسات الاجتماعية على وجه الخصوص، إلا أن هذه الأخيرة (الموضوعية) تبقى لها أهمية كبيرة باعتبار أنها تعبر عن الحياد العلمي وتجرد الباحث من الأهواء والرغبات الشخصية التي قد تعترضه عند تناول بحثه، فالموضوعية في الأخير ماهي إلا تأكيد الباحث لمختلف نتائج الواقع وتحليلها أكثر من انطباعاته الشخصية أو آرائه، كما أنها تعبر عن التجرد والنزاهة من كل حكم من أحكام القيمة ما دام الباحث رجل علم لا يواجه إلا عالما مستقلا عن رغباته وآرائه الشخصية تجردا ونزاهة، ورغم أن الموضوعية تعد شرطا أساسيا من شروط البحث العلمي إلا أن تحقيق هذا الشرط من قبل الباحث الذي يعد جزءا كما أشرنا لا يتجزأ من الواقع الذي يقوم بدراسته يعد صعبا ويتعذر على الباحث تحقيقها بشكل كامل وتام، وهو ما سنحاول توضيحه في هذه الورقة البحثية من خلال تناولها من محورين:

المحور الأول: ماهية الموضوعية في العلوم الاجتماعية (مفهومها والفرق في تطبيقها بين العلوم الاجتماعية والطبيعية)

المحور الثاني: الخصائص الأساسية لتطبيق شرط الموضوعية في الدراسات الاجتماعية.

المحور الأول: ماهية الموضوعية في العلوم الاجتماعية (مفهومها والفرق في تطبيقها بين العلوم الاجتماعية والطبيعية)

1- مفهوم الموضوعية:

يقصد بالموضوعية البعد عن الذاتية (التحيز لرأي ذاتي ساذج أو رأي جماعي جاهز يوفر مكانة مميزة للباحث بين أفراد هذه الجماعة رغم أن الرأي ليس له سند من الواقع) والبعد عن التوجيه الإيديولوجي (الارتباط بنسق فكري متكامل يعتقد أنه الموصل إلى الحقيقة) والبعد عن الحكم القيمي (يقول أن ما يصل إليه من حقيقة ضار أو نافع) في دراسة الظاهرة، أي الفصل بين العلم والتطبيق أو الفصل بين البحث العلمي والتوجيهات المرتبطة بالتطبيق بالمعنى الواسع لهذه الكلمة¹، كما تعني أخلاقيا ذكر الحقائق التي تم التوصل إليها كما هي سواء عززت وجهة نظر الباحث أو تعارضت معها، دون أي تغيير أو تحريف عليها²، وتعني خاصية الموضوعية أن تكون خطوات البحث العلمي كافة قد تم تنفيذها بشكل موضوعي وليس شخصي متحيز، ويحتم هذا الأمر على الباحثين ألا يتركوا مشاعرهم وآراءهم الشخصية تؤثر على النتائج التي يمكن التوصل إليها بعد تنفيذ مختلف المراحل أو الخطوات المقررة للبحث العلمي³.

2- الفرق بين العلوم الطبيعية والاجتماعية:

تشكل العلوم الاجتماعية مجموعة من التخصصات الأكاديمية التي تهتم بالمجتمع والعلاقة بين الأفراد داخله، حيث يرى لوسيان غودمان أن الإنسان موضوع العلوم الإنسانية والموضوعية تلاقي صعوبات لأن الدارس هو الإنسان والمدرس هو الإنسان وبالتالي يصعب الفصل بين الذات والموضوع فغودمان يقر بأن العلوم الإنسانية (علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ...) تبقى عاجزة عن استيفاء شرط الموضوعية لأن الظواهر الإنسانية تتميز بتعدد وتنوع الأسباب المؤدية لظهورها وسرعة تغيرها وصعوبة عزل الباحث عن المجتمع فهو جزء من المجتمع ولا بد أن يتأثر بالظواهر الموجودة فيه لذلك فالباحث في العلوم الإنسانية لا يستطيع التخلص من أحكامه القبلية ومواقفه المضمرة ونوازهه اللاواعية، عموما يمكن أن نوجز نقاط الاختلاف والاشتباه بين كل من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية في العناصر التالية:

أ- نقاط الاختلاف⁴:

❖ تعقيدات الظواهر الاجتماعية والإنسانية، مقابل ظواهر أكثر ثباتا واستقرارا في العلوم الطبيعية:

حيث يكون الإنسان محور الدراسات والبحوث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهو أكثر الكائنات الحية تعقيدا على الأرض، وسلوك الإنسان وتحركاته تتأثر بعوامل عديدة، نفسية ومزاجية، تصل إلى درجة تربك الباحث ولا تساعده في ضبط تحركاته وتسجيل المعلومات المطلوبة عنه، خاصة في الأساليب التجريبية والملاحظة، بينما الباحث الاجتماعي يكون أكثر توفيقا في الضبط والتحكم مع الكائنات الحية الأخرى أو المواد المراد إخضاعها للتجربة والملاحظة في مجال البحث العلمي في العلوم الطبيعية.

❖ قلة التجانس، أو فقدانه أحيانا في مجال الظواهر الاجتماعية والإنسانية، مقارنة بالتجانس الأكثر في العلوم الطبيعية:

فأنه على الرغم من وجود عدد من الظواهر والصفات التي يتشابه بها العديد من الأفراد في المجتمع، إلا أن كثيرا من الظواهر والصفات الأخرى لها طابعها المنفرد وشخصيتها المتميزة وغير المتكررة، ولا يستطيع الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية أحيانا الذهاب إلى حد بعيد في تجريد العوامل المشتركة في عدد من الحوادث الاجتماعية والدراسات الإنسانية بفرض التعميم واستخراج القوانين العامة المشتركة لها.

❖ صعوبة استخدام الوسائل المختبرية للعديد من البحوث والدراسات الاجتماعية والإنسانية، والتي هي شائعة الاستخدام في العلوم الصرفة (البحث) والتطبيقية (التكنولوجيا):

إن العديد من القوانين والأنظمة لا تسمح عادة بأن تخضع الإنسان للتجارب المختبرية التي تحتل المخاطر لحياته وصحته. فلا يمكن أن نأتي بالإنسان ونجرب عليه لقاحا يحمل المخاطر لصحته، أو غير مؤكد المفعول مثلاً، أو نقطع جزء من جسم الإنسان لفحصه وإجراء التجارب عليه، أو ما شابه ذلك من التجارب، التي قد تطبق على بعض أنواع الحيوانات، كالجرذان والقردة مثلاً، كذلك فإنه من الصعب وضع أو إخضاع الظواهر الاجتماعية، التي يكون محور حركتها الإنسان، لظروف قابلة للضبط والرقابة والتحريك.

❖ صعوبة دراسة الظواهر والموضوعات الاجتماعية والإنسانية دراسة موضوعية، بعيدا عن الذاتية والعواطف الشخصية، للباحث والمبجوث:

فالظواهر الاجتماعية والإنسانية هي أكثر حساسية من العلوم الطبيعية من ناحية الموضوعية، لأن تأثر الإنسان وقراراته هي غالبا ما تكون في تغير مستمر بضوء رغباته وأغراضه الشخصية، مما يؤدي إلى صعوبة وقوف الباحث، كإنسان مجرد عن ميوله ورغباته وتحيزه، أمام موضوعات إنسانية واجتماعية شتى، كالتطبيقية، والعنصرية، والوسائل الدينية والسياسية.

❖ إن الارتباطات الاجتماعية والعاطفية بقيم أو نظم معينة، مشروعة أو غير مشروعة، تدفع بالإنسان الباحث لأن يتخذ موقفا ويتحيز أحيانا إلى قضايا اجتماعية وإنسانية معينة:

في حين أننا لا نجد مثل هذه الاتجاهات والمعوقات موجودة عند الباحثين في المجالات العلمية الصرفة والتطبيقية، كالفيزياء والكيمياء والزراعة مثلاً.

❖ الشمولية في العلوم الإنسانية:

حيث أن العلوم الطبيعية تتخذ من القوانين والنظريات العلمية الشاملة والثابتة طريقا تسلكه ولغة تتحدث بها . فنظريات الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة مثلاً، هي شاملة لا تنقيد بمكان جغرافي محدد أو فترة زمنية، محددة طالما بأنها مناسبة تنطبق على جوانب الطبيعة والكون بشكلها العام.

ونرى أن هذه الصور تنعكس في العلوم الإنسانية، حيث أن الإنسان، كما أوضحنا سابقاً، هو محور البحوث الإنسانية، لذا فإن ما هي نسبية، وقد تكون محددة بوقت معين، ولا تأخذ شكل الثبات والشمولية.

❖ إن مجال البحوث في العلوم الصرفة والتطبيقية:

يتركز على استثمار الموارد الطبيعية والحيوانية، بينما يتركز مجال البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية على الموارد البشرية.

❖ إن العلوم الطبيعية تميل في بحوثها نحو الظواهر الجارية، أو المجالات في سياقها الحاضر:

بينما تشمل البحوث في العلوم الإنسانية للنشاطات الجارية والماضية أيضاً، وهي ما يطلق عليه بالمنطق التزامني في بحوث العلوم الطبيعية، والمنطق التعاقي في بحوث العلوم الإنسانية. فغالبية البحوث الإنسانية تحتاج إلى دراسة خلفيات موضوع البحث، وخلفياته السلوكية.

ب- نقاط التشابه⁵:

أما نقاط التشابه والالتقاء بين بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية، من جهة، وبحوث العلوم الصرفة والتطبيقية، من جهة أخرى، فيمكن إيجازها بالآتي:

❖ التخطيط والبرمجة:

إن التخطيط والبرمجة كانتا ولا تزالان سمة مهمة من سمات بحوث العلوم الطبيعية، غير أن العلوم الإنسانية هي الأخرى أخذت، منذ أواسط القرن الحالي، تعنى باستثمار هاتين الميزتين بشكل متزايد. وقد أدرك العلماء والباحثون في كلا المجالين -الطبيعي والإنساني- أن غالبية مشاكل ومجالات الحياة، التي تتطلب الدراسة والبحث، يصعب التعامل معها وإيجاد الحلول المناسبة لها، إلا إذا تكاملت كافة حلقات العلوم فلا تكفي خبرة علماء الطبيعة بمعزل عن المشاركة البحثية الفعالة من قبل علماء الاجتماع والعلوم الإنسانية الأخرى.

❖ التطبيق والتجريب:

لقد أصبحت بحوث العلوم الإنسانية، بمرور الوقت، تتجه نحو استخدام مبدأ التطبيق والتجريب، الذي استخدمه الباحثون في مجالات العلوم الطبيعية، حيث اعتمدت البحوث الإنسانية، ولا زالت تعتمد على، أسلوب البحث الميداني، كأحد أهم أساليبها ومناهجها في البحث العلمي، بغض النظر عن المشاكل والتعقيدات التي تواجه الباحثين في مجال العلوم الإنسانية، في الجانبين التطبيقي والتجريبي، فالباحث في مجال مثل علوم الحياة (البيولوجي) مثلاً يستطيع إجراء تجاربه على مجموعة كبيرة ومتنوعة من الحيوانات التي تدخل في مجال تخصصه، ولكن الباحث في المجالات الإنسانية والاجتماعية سيكون مقيداً بالتقاليد والأعراف، في حالة اختياره لمجموعة من الأفراد والفئات الاجتماعية لإجراء بحوثه. ولكن بالرغم من ذلك، وبرغم التحفظات التي أوردناها في مجال البحوث الإنسانية فقد أصبح الأسلوب والمنهج الميداني مطلوب ومرغوب، ويجد له باباً مفتوحاً في الكثير من الحالات، سواء كان ذلك في العراق أو الأردن أو أي من الأقطار العربية ودول العالم الأخرى.

❖ التداخل العلمي الموضوعي بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية:

فقد تطورت العلوم الإنسانية، بمختلف فروعها وموضوعاتها، لتؤكد وتكثف التفاعل والتداخل المشروع مع عدد من موضوعات وفروع العلوم الطبيعية. بل وأصبح مثل هذا التداخل والتفاعل سمة من سمات التطور العلمي والبحثي، وخاصة في الدول المتقدمة علمياً وبحثياً، أو الدول التي تسعى إلى ذلك. وقد أخذ مثل هذا التفاعل، بين موضوعات

العلوم الإنسانية والطبيعية، يأخذ طريقه في جامعاتنا ومؤسساتنا البحثية في العراق والأردن والعديد من الأقطار العربية الأخرى.

❖ استخدام الأساليب الإحصائية والتقنيات الحديثة:

فقد تطورت أساليب البحث في مجال العلوم الإنسانية بالنسبة إلى استخدام الحواسيب الإلكترونية والتقنيات والوسائل الحديثة الأخرى، ونرى العديد من الدراسات السكانية، والتعليمية، والاقتصادية، وفي علوم المكتبات والمعلومات والاجتماع، وغيرها من الدراسات، تتجه إلى هذا الطريق.

المحور الثاني: الخصائص الأساسية لتطبيق شرط الموضوعية في الدراسات الاجتماعية.

1- الخصائص الموضوعية في العلوم الاجتماعية:

إن الظواهر الإنسانية والاجتماعية تختلف عن الظواهر الطبيعية والحيوية من حيث الخصائص وبالتالي فإن وجه الخطأ في التسوية أثناء البحث بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية هو أن الظواهر الإنسانية لا يمكن أن تكون صادقة وهي مجردة عارية من الملابس الدينية والخلقية والاجتماعية التي تحكم حركة هذه الظواهر ومن ثمة فإذا كان الإنسان جزءا من هذا العالم فإنه جزء لا يتجزأ وبالتالي فدراسته تحتاج إلى مناهج وأساليب خاصة تستجيب لطبيعة هذه الخصوصيات في الظاهرة⁶، عموما يمكن القول أن هناك مجموعة من الخصائص الموضوعية في العلوم الاجتماعية يمكن تلخيصها في العناصر التالية⁷:

- إجماع الباحثين يحد من مفعول عنصر الذاتية: أي أن يكون ماهو موضوعي مشتركا بالنسبة لأذهان كثيرة وبالتالي يمكن نقله من واحد إلى آخر.
- تقنين الظواهر الاجتماعية ورفعها بالصبغة العلمية: بمعنى أن ما يكون مشتركا وقابلا للنقل ليس الإحساسات بل ما يمكن أن يصاغ في علاقات ونظريات.
- مرونة النتائج وقابليتها للمراجعة: حيث أن ما تستطيع النظرية أن تقدمه هو صورة لم يستوف صقلها وبالتالي فهي صورة مؤقتة وزائلة.

في الدراسات الاجتماعية تطرح عديد التساؤلات حول مدى تطبيق خاصية الموضوعية بدءا من تحديد المشكلة، فالدراسات الاجتماعية بشكل عام تحتج إلى جانبين نظري وتطبيقي، فالجانب النظري يتناول أهمية الموضوع وتعريفه إضافة إلى وضع الفروض ونوع المنهج المستخدم في حين أن الجانب التطبيقي فالباحث يعتمد على العمل الميداني في حالة عدم توفر المادة المكتوبة اللازمة أو لإثبات فروض الدراسة، وهنا تطرح إشكالية أن المادة الميدانية على غرار المادة المكتوبة من كتب ومراجع مختلفة لها ميزتها ن الباحث يجمعها عن قصد فيمكن له بذلك أن يوفر لنفسه المادة التي يريدونها دون غيرها كما انه يمكن أن يتحيز في اختيار العينة... الخ. ورغم هذه الاعتبارات التي يراعيها الباحث في اختيار مشكلة البحث فالباحث سيكون بالضرورة متحيزا في اختياره لنوعية المشكلة التي سيختارها وليس هناك من سبيل لمنع تحيز الباحث في اختيار مشكلة بحثه وعموما كما يرى دارندورف (1961) فمثل هذا التوجيه الإيديولوجي لا تأثير له على موضوعية البحث العلمي نفسه لان عملية اختيار المشكلة تتم قبل البحث نفسه وليست جزءا منه ولا يمكن أن نقول أن هناك موضوعات ممنوع

البحث فيها وأخرى يجب تركيز البحث عليها على الرغم من أن نوعية العمل العلمي تزداد بنوعية اختيارات الباحث لموضوعاته ولكن هذا الاختيار يتم في مرحلة ما قبل الدراسة العلمية نفسها وتعبّر عن رغبة الباحث واهتماماته وأي توجيه إيديولوجي للباحث لا يمكن أن يؤثر على موضوعية البحث العلمي نفسه ولذلك لا أهمية له على الموضوعية وفي الوقت نفسه لا سبيل للحد منه⁸.

2- كيفية تجاوز العوائق في علم الاجتماع⁹:

لقد حدد إيميل دور كايم خمسة خصائص للظاهرة الاجتماعية، نأخذها كمسلمات من أجل تفسير الظاهرة الاجتماعية تفسيراً موضوعياً وعلمياً وهي: أنها توجد خارج شعور الأفراد، أي خاضعة للعادات والتقاليد والمعتقدات التي هي موجودة قبل أن يولد الإنسان وتوجه كسلوكات، كما تعتبر قوانين المجتمع القوة الأمرة والقاهرة مما يجعل الظاهرة الاجتماعية تمتاز بالإلزام والإكراه لذلك تفرض نفسها على الفرد داخل المجتمع، كما أنها صفة جماعية تتمثل فيما يسميه دور كايم بالضمير الجمعي، (عندما يتكلم الفرد، فإن الضمير الجمعي هو الذي يتكلم فيها)، أي أنها لا تنسب إلى الفرد ولا إلى بضعة أفراد، إنما هي من صنع المجتمع وهي عامة يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، وتظهر في شكل واحد وتتكرر إلى فترة طويلة من الزمن، رغم أن الفضل في نشوئها يعود إلى الأفراد، كما أن الظواهر الاجتماعية في ترابط يؤثر بعضها في البعض ويفسر بعضها البعض مثل الأسرة هي مرآة المجتمع، وبينهما تأثير متبادل، كما أنها تمتاز بأنها حادثة تاريخية، أي أنها تعبر عن لحظة من لحظات تاريخ الاجتماع البشري، حيث أن هذا التحديد للظاهرة الاجتماعية صحح بعض طرق التعارف الفاسدة، مما أدى بالدراسات الاجتماعية إلى التقدم في مجال العلم والموضوعية، بعدما كانت عبارة عن تصورات، وهذا ما أوصل دور كايم إلى اعتبار نطاق الظواهر الاجتماعية أوسع مما يعتقد، حيث يقول: (ما من حادثة إنسانية إلا ويمكن أن نطلق عليها اسم ظاهرة اجتماعية)، كما اعتبر دوركايم: أن الظاهرة الاجتماعية مثلها مثل بقية الظواهر القابلة للدراسة وفق المنهج التجريبي من أجل صياغة القانون، وفي هذا قال: (يجب أن نعالج الظواهر على أنها أشياء)، أي بنفس المنهج الذي يدرس به عالم الفيزياء الحادثة الطبيعية، خاصة قواعد الاستقراء التي مكنت علماء الاجتماع من اعتماد المقارنة بين الحالات واستنتاج القوانين، ومن جملة القوانين التي توصل إليها الاجتماعيون قانون وارد الذي يقول: (إن الأفراد يبحثون عن أكبر كسب بأقل مجهود)، وقانون دوركايم حول الانتحار (الميل الشخصي إلى الانتحار يزداد مع قلة الروابط التي تربط الفرد بالمجتمع).

خاتمة:

من خلال عرضنا يتبين أنه لازالت لإشكالية مطروح بشأن مدى الالتزام بأهم خاصية من خصائص البحث العلمي إلا وهي الموضوعية وعلى وجه التحديد في الدراسات الاجتماعية، ورغم أن تطور العلوم الطبيعية والتجريبية ساعد في تطوير البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية وتبنيها الطرح العلمي بكل خصائصه ومميزاته إلا أن مسألة الالتزام بالموضوعية بشكل تام يبقى نسبياً في هذه الدراسات وهذا يرجع بشكل أساسي لطبيعة الظاهرة الإنسانية باعتبارها ظاهرة معقدة، متغيرة وأن الإنسان يكون هو الدارس والمدرس في الوقت نفسه، حيث يتعذر على الباحث إخضاع موضوعاتها للضبط الكمي الكامل، ويستحيل تصويرها بالمعادلات

الرياضية الدقيقة ،عكس الدراسات الطبيعية التي تتميز بالدقة في قوانينها وإمكانية تكميم معطياتها تكميما تاما ودقيقا.

الهوامش:

- ¹ - غسان زكي بدر: الموضوعية في أبحاث علم الاجتماع، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مكتبة البنين، العدد 04، جامعة قطر، 1981، ص89
- ² - حمزة جحنيط: المبادئ الأساسية والأخلاقية للبحث العلمي، الملتقى المشترك حول الأمانة العلمية، مركز جيل البحث العلمي، سلسلة كتاب أعمال المؤتمرات، طرابلس، لبنان، 2017، ص20
- ³ - ممدوح عبد المنعم صوفان وآخرون : دليل أخلاقيات البحث العلمي، يناير . 2012 ص 06
- ⁴ - عامر قنديلجي: البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية، جامعة عمان، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص ص37-39
- ⁵ - عامر قنديلجي: مرجع سابق، ص ص39-40
- ⁶ - سلطان غيث: مرجع سابق، ص322
- ⁷ - سلطان غيث: مرجع سابق، ص321
- ⁸ - غسان زكي بدر: مرجع سابق، ص 92
- ⁹ - عبد المومن بن صغير: الصعوبات التي تعترض الباحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية وحدود الموضوعية العلمية ، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد01، أكتوبر2013، ص28